المكرهون

قصة بقلم محمد منسي

الى اين تذهب ؟ ابق في داخل هذه الجموع ! انت منهم . كثير من الناس . كلهم شباب . وقال في نفسه « ما اكثر الغرباء ! »وابتسم « اننا لسنا قليلين . اننا نغطي المكان » فلتدخل في وسطهم . انهم يعرفون الى اين ؟ « المسألة جدية : التبرع اجباري والتدريب قسر ، لم يبق الا ان ننطلق » . وسرت في جسده رعدة « اي وراثة هذه،ورثناها جميعا !؟ » . كان الشارع الكبير يفص بجموع الشباب الخارجة لتوها من الاجتماع ، وقال في نفسه « سنكون اصغر جيل عمر على هذه الارض ، ولكنا سنعرف العالم اكثر من اي جيل غيرنا : عالم متآمر لئيم».

وسمع صوت احدهم :

ـ التبرع قليل ، ليزيدوا قيمته .

ومن هناك خرجت اجابة متوثبة :

ـ لقد قال المبعوث برشاقة :كاف اجباريا وقابل للزيادة اختياريا. فاترك هذه « اللماظة » .

وسمع اخر يتحدى بخفوت :

ـ اذا كنت غنيا فالزيادة اجبارية .

ومضت الاصوات تهدر وتصبغ المكان ، وكأنها تعطيه معناها : لقد اصبحنا مسؤولين عن عزبتنا ، سنضرمها . وقال في نفسه : « اننا لن نستطيع ان نبقى مهزومين » . وحياه احد اصدقائه ، لا تزال عيناه تلمعان ، ولكنهما تبدوان هذه المرة في مصيدة ، وابتدره الملاحظة :

ـ آمنت ؟ هذه هي .

واجاب الصديق وعيناه تلمعان باذعان ورضى :

ـ نريد ان ننتهي من الهم المسمى خميس .

واندفع :

ـ اننا لا ننتهي ، اننا نبدأ ، فارقب !

واسرع الصديق مع اخر ، فسأله :

ـ الى اين ؟

واجابه بابتسام وعيناه تتلصصان :

ـ سابحث عن امرأة قبل ان يفوت الاوان ، من يدري ؟ يجب ان نجرب اللعبة قبل ان تخردقنا رصاصة .

وضحك واحد من بعيد .

ـ معقول جدا ، يجب ان نجرب جميع لعب العالم قبل ان نجرب لعبته الاخيرة .

وتبجح واحد منتفخ الاوداج واسنانه صفراء :

ـ من الافضل ان تدخل المعركة وانت جاهل ، حتى لا تتذكر لذائذ الحياة فتهرب .

وشجبه الصديق بسخرية :

ـ انك جاهل لا تعرف ، وربما تكون جبانا ، يجب ان نجرب .

والتفت نحو مريود وقال باسى عابث وهو يمضي :

ـ ما اغبنها رصاصة يا صديقي !

وبقي مريود يسير ببطء داخل الزحام ، كان يسمع قهقهات وفلتات وكأنها تخرج من افواه محشوة بالبرغل . وقال في نفسه « ربما يكون ذلك صحيحا ، من يعرف ؟ أيهما العمر ؟ الزمن ام التجارب ؟ وعلى كل، لقد قال احدهم : « مجالي هو الزمان » وحنق باسى « ما اغبنها رصاصة» ورأى مراد يتقدم منه هاتفا :

ـ مريود ! اين كنت ؟ لقد بحثت عنك كثيرا ؟

واجابه كمن يدري :

ـ ها انا هنا كما ترى !

وقال باستغراب حانق :

ـ انها اول مرة تزج نفسك في وسط الناس .

وقال بسهوم : ـ لإنها الحقيقة الاولى .

ـ صحيح . (واستدرك كمن نسي شيئا) اسمعت ؟ ان هناك من يريد ان يجرب قبل أن يموت.

ـ سمعت . وان له الحق في ان يجرب ليكتشف عمره

كان مراد ينظر اليه وكأنه يقول له « اعرفك !؟ » ولكنه قال باندفاع:

ـ وانا اريد ان اجرب ، اريد ان انطلق ، ان ارى العالم ، انا هيم، واشعل ليالي جميعا،ليالي الباقيات ، وانت ماذا تريد ان تجرب ؟ .

وكظم مريود في نفسه « فات الاوان ، ولم يعد العالم يعجب ، لم يعد العالم مكانا للهيمان . اننا لا نرى من العالم سوى الكآبة والزيف، اننا نعيش القرف والغربة والخوف والقلق ، والتفت الي مراد كمن يترصده وقال :

ـ ماذا تريدني ان اجرب ، كل ما عرفته اننا غرباء في العالم ، والعالم مزيف سراق ، لم يبق الا ان اجرب التجربة الاخيرة .

وحملق مراد وكأنه يتفحص اعماقه : ـ ماذا تقصد ؟

ماذا كان يقصد ؟ صحيح ، ماذا ؟ انه يدلل على حياته وكأنه خلص الى نتيجة منها وبقي عليه ان يفرغ هذه النتيجة ويقولبها . انه ليس حكيما . ولكن ماذا يريد مراد ؟ وتذكر شريطا طويلا من حياته انعكس مرتسما على لفافة تبغ كان يولعها. لقد رجل في العالم لاسباب شتى كان يعللها احيانا : باحثا عن عمل ، هاربا ، يريد ان يعرف . واخيرا لم يعد يستقر في مكان مجبرا او مختارا . وفي يوم سمع صرخات من الالم وطلقات ودخانا ودما وموتا واملا يائسا ورأى ارضا تلتهب على صفحات كتاب من الفظاعات ، وشعر بابهام كئيب يغلفه « هذه هي الحصيلة » . وانتبه على مراد يستنطقه : ـ ماذا تقصد ؟

ونفث دخان لفافته وشعر انه اكتشف :

ـ اننا نجرب لنملأ عمرنا ونعطيه معنى ، ومع ذلك فنحن لا نعرف سوى حقيقتين : اننا نحيا ونعرف الحقيقة الاولى : اننا غرباء .ونموت، وعندها نعرف الحقيقة الثانية والاخيرة : اننا نموت . وهذا هو العمر: لعبتان نحن مجبرون على ان نلعبهما.

وجاءه صوت مراد اشبه باللوعة :

ـ انكم تفترضون ان نموت ، ولكن لماذا نموت الان ؟ هراء ، انني لن اموت .

كان وجهه الاسمر قد صار بنيا واصبح حردا . ولكنه عاد يقول ساهما وهو يعبث بلفافة تبغ في يده ... كان صوته خافتا وكأنه يحدث نفسه :

ـ اموت ؟ انني لا استطيع ان اموت الان ، انني لم افعل شيئا بعد ، ما زالت الايام امامي ممتدة ، امس خرجت للحياة .

وقال مريود وهو يتلمظ على دخان اللفافة :

ـ ماذا تريد ان تفعل ؟ ان الذي جرب والذي لم يجرب ، كلاهما متساويان امام الحقيقة الاولى : عالم من حولنا مزيف ، ظالم ، سراق ، ونحن فيه اما غرباء نعيش الغربة والقلق ، واما مظلومون نعيش الكآبة والخوف ، واما مخدوعون نعيش زيفه وسخافته ، وهما متساويان ايضا امام الحقيقة الثانية : موت مغبون .

ورد مراد وكأنه يتشبث بملامح طيف افعاله المقبلة :

ـ هناك فرق كبير بينهما . والا فهذا يعني ان حياتنا عبث . ليس لها اي معنى . واي معنىذلك : غربة وقحة ، وموت مغبون .

وقال مريود في نفسه « عبث ؟ انه العبث بعينه . ولكنا لا نستطيع الا ان نعيشه . »

كانت الجموع قد تفرقت في الشوارع الفرعية والمقاهي . وسأل مراد :

ـ الى اين نذهب ؟

وباغته السؤال ، كان لا يستطيع ان يسمع هذه الكلمة ، فهي دائما تشعره بانه غريب ، قلق ، خائف ، لا يدري : اين هو ؟ اين يذهب؟ والطريق دائما ترقص امامه . والليالي تخدش اطرافه وتنهشها وهي تقهقه . ولكنه كان قد تعود عليها ودثرها بقطعة من الصوف . فهي كالافعى في حياته . ولكن اليوم شعر انها تخرج من مخبئها وتنطق برهبة « اين تكون غدا ؟ على الجبال ، او الرمال تحت وهج الموت » . والان ، شعر بانها لم تعد ذات اهمية بعد ان افصحت عن نفسها ، سيواجهها : الى اين ؟ المقهى ! الدار ! المدرسة والتلاميذ ! المكتب ! واخيرا هناك اخر « اين » حيث وهج الموت . وقال لمراد :

ـ لم يعد لـ « اين » معنى بعد ان عرفنا اخر « اين » . واصبحت امامنا رهيبة في مقابل هذا العالم . لنذهب حيث تجرنا اقدامنا .

واحتد مراد مقررا :

ـ هيا الى المقهى .

كان مراد الان قد بدأ يستعيد لونه الاسمر الفاحم ، ولكنه كان يشعر بان هناك شيئا يمغطس اعماقه بتوتر جحيمي . واستعاد في نفسه كلمات لم يكد يتحسسها « العمر : غربة وقحة ، وموت مغبون . لعبتان نحن مجبرون ان نلعبهما » وقال في نفسه بحنق « خلقنا مجبرين وسنموت مجبرين » ورفع صوته محدثا نفسه دون ان يدري : « مكره اخوك لا بطل : هذه هي الحقيقة التي سنتساوى عندها جميعا » .

واحس مريود بانها هي ، انها ما يريد ان يقول ، فحدس « تراه بمن يظن انه يكرهه » واندفع قائلا :

ـ اجل مكرهون . اننا مكرهون على الغربة بحكم وجودنا ، ونحن مكرهون على الحرب وبالتالي الموت ، وليس هناك انسان يكرهنا ، ولكن الذي يكرهنا زيف هذا العالم ولصوصيته ، ولو كان الجيل الهارب يدرك زيف العالم ولصوصيته ، لشعر بانه مكره على الحرب والموت ، والواقع ان الذين ادركوا حاربوا وماتوا .

وقال مراد بحزم :

ـ هيا ، لقد كان في ذلك الجيل الكثير من الخونة ، هذا كل ما كان ، كان الكثير من افاعي التبن.

واسرع مريود يضع يده :

ـ وما يزال ، ولذلك فاننا يجب ان نحارب ذلك الزيف وتلك اللصوصية ، لقد آن لنا ذلك .

واقتربا من مقهى ، فعطفا نحوه وجلسا الى طاولة منزوية . وقال مراد باعياء . وكأنه يقرر نتيجة :

ـ كلانا يشعر بانه مكره على هذه الحرب ، ولكن انت مستعد للموت ، وانا غير مستعد ، ـ (واضاف بسخرية) ـ ان الموت كليلة الزفاف ، بحاجة الى كثير من الترتيبات والاستعداد ، على الاقل ان نجهز انفسنا : ان نشبع او ان نيأس .

وقال مريود وكأنه ينفي عنه وصمة :

ـ اي استعداد هو ذلك الاكراه ؟ كل ما هنالك انني لن اتكلم عندما تخرق الرصاصة صدري ، فالحياة ستكون قد مصمصت من يدي وساكون مكرها على الكظم ايضا .

كان مريود يفرقع اصابعه ، وقد بدأ يشعر بشعور مأساوي يترقبه في اعماقه . انه يريدها ان تبدأ ، وتنتهي ، ليعرف نتيجته : حياة ؟ موت ؟ واي الانواع؟ الموت معروف ، ولكن الحياة ان حصلت ؟ انها غامضة ، ورأى الموت في نفسه قريبا فناجاه : « لتذهب الحياة بغموضها الى الجحيم ، واما الموت ، انه اكثر موضوعية ، انه يبدو معقولا »وشعر بشيء يعصر عنقه ، واختنق : « انه رهيب » ونفث دخان لفافة اولعها :

واقترب النادل يتمطق بلغة فرنسية ، واحتد مريود :

ـ الا ترى ، اننا عرب ، اعطنا القهوة .

واجاب النادل بابتسامة مبايعة « وا » ثم زعق ذلك بالفرنسية وذهب .

وقال مريود بسهوم :

ـ ليت كل شيء يبدأ غدا .

ـ لماذا ؟ سأله مراد بينما كان يرقب الشارع بانتباه .

ـ حتى لا نعيش الانتظار تحسيبا وتخمينا . اخذا وعطاء

كان مراد يهب عينيه للشارع ، وقال ببرود :

ـ لا تستعجل الامر ! انه قادم . (وحملق بفتاة مرت على الشارع) : اه ! انظر كيف تهز ردفيها ، ان ليلة ، ابطحها فيها على السرير ، تنقذني من الرصاصة المغبونة .

ـ ان المرأة لا تنقذ من الرصاص .

واجاب مراد باعتقاد وهو يتبعها بعينيه :

ـ ان ليلة معها ، ستخفف هول تلك الرصاصة ، عندما تتقدم. انها ستلطف ذكرياتي ، انها عملية انقاذ . (ونظر الى مريود واستطرد) : الا ترى معي ذلك ؟ .

ومط مريود شفتيه :

ـ لقد اصبح افضل شيء احبه في المرأة صورتها ، ان المرأة هنا ، احدى اثنتين : اما جاهلة ، او خائنة ، وكلتاهما قذرة . انظر الى صورة المرأة في المجلات ، فهو افضل .

واصطنع مراد هيئة خبير :

ـ انك تخاف المرأة ، ولكن كيف ستحارب ؟ ام انك ستنظر الى صورة للحرب ؟ لا ! ان على الانسان ان يضاجع المرأة ، ويضاجع الحرب.

وتوقف ، كان يزم شفتيه ويصغر عينيه ، كان يبحث عن كلمة مناسبة ، واختار :

ـ حتى تكون الحياة .

كان مريود يصطرع في داخله « ان مراد يعبث ، ولكن هذا صحيح: ان تضاجع المرأة والحرب ، يعني ان تضاجع الحياة والموت في وقت واحد ، ان تضاجع هذا العالم : اما ان تبطحه ، واما ان يبطحك . ان الهرب خيانة والاستمرارية فيه مستحيلة . فليضاجع منذ الان كل شيء ، وليقامر على هذه المضاجعة . ليقامر على جميع تجاربه ، انها كلها مضاجعات . واخيرا ليقامر على الرصاصة ، وهزته الفكرة ، ونظر في فنجان القهوة الذي احضره النادل ، فرأى نيرانا وعجاجا وسمع اصوات قنابل تهز الارض ، وصرخات تتمزق وتمزق ، وازيز رصاص يخترق الدماغ ، ورأى طلقة مغبونة قادمة من بعيد نحوه ، فتناول الفنجان وافرغه في جوفه بجرعة ودمدم في نفسه « اننا لن نستطيع ان نبقى مهزومين ، نعيش القلق والغربة ، لقد آن لنا نحن الغرباء ان نعيد بيتنا، وان نعيش السلام والحرية ، لقد خلقنا نحن لنمثل دورنا بعزة او نموت . »

ونظر الى مراد ، كان يدخن لفافة بصمت ، وقد افرغ قهوته ، فقال:

ـ هيا بنا .

ـ الى اين ؟

كان يزرع نظرته في الشارع زراعة خريفية . واجابه مريود بحماس:

ـ سنسير على الطريق ، سنضاجع كل شيء ، ونقامر عليه . واول ما سنفعل ، سنمر على المكتبة ، فقد نجد فيها جديدا ، ثم سنذهب الى المطعم ، وبعد سنرى من جديد.

ودفعا ثمن القهوة ، وسارا وسط زحام الشارع الغاص بالناس ، ورأيا ثلاث فتيات يعبرن الشارع بحذر . فقال مريود وقد قرر :

ـ ها نحن سنعرف اين نذهب .

ونزلا وراءهن الى شارع خلفي ، ثم الى الشارع الساحلي الممتد فوق الميناء ، وقال مريود في نفسه « انها جميلة ، واجمل من الحقيقة » وصرف باسنانه « ما اغبنها رصاصة . صحيح ! انها اغبن ما سنضاجع».

ولفتهما عتمة المساء وحركة الشارع الصاخبة وكلمات اقلقها العياء ، وكان مريود لم يعد يدري ماذا يقول بعد ذلك « انت جميلة ، وعيونك ساحرة » ؟وكانا قد نسيا المكتبة والمطعم .

الجزائر   **محمد منسي**